

## موتى ينقذون الأحياء

محمد مسعود جاد

كما يلهو الماء بأقدام السائرين في بحيرة متجمدة، كان يشعر أن الريح تتغذى على أعصابه كلما عوت حوله عندما التفت عليه المساء، فكان الظلام يغرز أشواكه في جسده و يمتص كل قطرة تتطاير من روحه، حتى صار قلبه كزورق مطاط قد حاصرته أمواج عاصفة بعدما تفتشت فيه الثقوب، ركضت أصابعه في جيبه لعلها تلتقي بقداحة أو علبة ثقاب فيداوي الرمذ الذي يحتل بصره، فلم يجد غير حقنة صديقه المريض الذي يتمايل على حافة الموت، فزادت الريح من وحشيتها وتعطش الظلام أكثر فصار يشرب هذا المسكين، و كانقطاع الشريط السينمائي في ذروة الحدث طفا وهج صغير، فأخذ يقترب منه فإذا هو فانوس صدىء لا يرش إلا نورًا قليلاً على المكان حتى إذا كاد أن يلمسه ذاب كأن شيئاً لم يكن!

و بينما تحاول صنارات عينيه أن تصطاد سمكة من الضوء لم تلتقط إلا شمعة في كف طفلة يكاد السواد يطلي جميع أبعادها، كانت تبكي كأن كل دمعة تقضم ركنًا في القلب وهي تصرخ:

-أغيثوني، أغيثوني أُمي تحتضر، فهرول إليها يود لو أن المسافة التي تفصل بينهما تختفي في غمضة عين، يمضي و عيناه مسمرتان على وجهها المهم الملامح و أذناه تغرقان في صوتها العاصر، فكان الجزء المتبقى من روحه قد احتضنها قبل وصول الجسد، حتى إذا كاد أن يتلقفها بيديه كبّحه بعض الخوف الذي يخالطه دفعة الواجب فكان يجبر قدميه اللتين تريدان التقهقر على المضي قدما نحوها،

و بينما كان محرك ساقيه بين الجموح و التوقف بدا وجه الطفلة ينشع غبارًا و بدت عينها لا توحيان بالبراءة مثل رداها البالي، فقال في سره:

- ربما تهيبت مني فتجمدت فيها صورة الأطفال، و كمن يحاول أن يضم وردة  
و هو يحذر من أشواكها كان يزيح عنها بعضًا من أثقال روعتها فيسألها:  
- ماذا هناك يا صغيرتي اهديني؟

فعاد الشلال على خديها ينصب ثانية و أشارت بإصبعها الذي يقاوم الهبوط،  
فلما تدلت على وجهه ملامح الريبة انفجرت من فمها تمتمات كأنها هلوسات الحى  
فلم يفقه إلا أن لا أحد في المنزل إلا والدتها، فتعلقت يدها في ثوبه تشده معها و صار  
يمشي و يحتار: هل أتركها و شأنها أم أكمل؟

فصار كالذي أوغل في طريق قد اختاره فلم يلمح فيه سوى المجهول فيظل  
يفكر هل كان من الأفضل أن يختار الطريق الأخر؟

فمضى معها يحس أن رائحة الموت تفوح من شعرها و كأن الأرض موحلة  
تأكل حذائه فلا تكاد تتركه، حتى وصل إلى منزل كأن لعنة تقبع داخله و كأن  
الغموض يحرسه و الباب شاحب كأن الضوء يحاول الهرب من تحت عاقبه إلى  
الخارج، و ما كادت أناملها أن تلمس الباب حتى اخترق سمعه صوت مبجوح يقول :-  
ياك أن تدخل إنها قاتلة إن دخلت فلن تخرج!

و كما يدور شباك عند فتحه بلكمة قوية التفت وجهه نحو مصدر الصوت  
فوجده ذلك الوهج الصغير، و كمن لا يعرف النوم من الصحو نظر إليها فابتسمت  
شفتاها اللتان تتزان دمًا يميل إلى اللون الأسود و صار جسمها يتضخم مثل بالون  
يمتلئ بالهواء، و تعالت ضحكاتها فأصبح كالذي ينظر إلى السيف وهو يقهقه

عندما تمكن من عنقه، حتى إذا همَّ بالفرار صارت يدها المتعلقة به مثل كماشة فالتهمت قطعة من ثوبه، كان يركض وكأن كل ذرة في جسمه مربوطة بخيط يسحبه إلى الخلف فيضع نصب عينيه تجاه الوهج كأن الضوء الذي تتعلق به عيناه حبل النجاة إلى الغريق، فابتعد معه و بينما هما يركضان نمت في صدره بعض الطمأنينة، فنظر في وجه الذي بجانبه فتصلب في موضعه كمن لسعته العقرب، فسأله بصوت يملؤه نيران غضب تلتفها ماء الجميل:

-ألست من جعلني أتشاجر في السيارة التي كنت أستقلها أثناء سفري فطردي السائق منها وأنزلي في ذلك المكان الملعون، فابتسم له بسمة خفيفة كأنها الزبد فوق الماء ومشى بعيداً عنه حتى اختفى مرة أخرى، وكمن ضل في الصحراء حتى تلاشى كل أمل لديه في الحياة، ثم عثر على واحة فرح عندما وجد نفسه قرب قرية صديقه المريض، وعندما تداوى صديقه هدأ وتناسى ما مر به من الأمس كالمستحم بعد عناء رحلة مرهقة و خلد إلى فراش النوم، فلما اطمئن على المريض وهمَّ بالرحيل و بينما يتجاوز بوابة الدار وقعت عينه على ذلك الفانوس الصديء فأصبح لا يدري لنفسه هل يطمئن أم يقلق؟

فقال الأخ الأصغر لصديقه وهو يشكره ويودعه:

-ما لك تتفرس فيه هكذا؟

فقال بشفيتين تخافان أن تنفصلا عن بعضهما فينبجس منهما الأسئلة:

-لمن هذا الفانوس؟

فقال بصوت مشبع بالألم والحسرة:

-إنه لأخيना الأكبر.

فقال والشوق يكاد يقفز من عينيه:

-وأين هو؟

فقال: مات من سنة!

فقال والدهشة تأجج في فمه:

-كيف هذا؟

فقال والكلمات تمزق شفتيه وأنفاسه:

ذهب ليلاً ليبحث عن حقنة أخي في البلدان المجاورة، فلم يرجع وعندما بحثنا عنه وجدناه مذبحاً قرب منزل مهجور لا يتعد كثيراً من قريتنا. فترحم عليه وودعه يعانقه و هو تنهال عليه أمطار من الأسئلة الحيرى، و بينما كان في طريق العودة و هو يحرق من نافذة السيارة التي يلتصق بها خده و التفكيك يريد غدغ رأسه صار كمن يصفعه البحر و هو مستلقي على الشاطئ فيصحو من غفوته، رأى السيارة التي كان يستقلها البارحة فلم تذهب منها بعض العلامات المحفورة في ذاكرته و هي ملقاة جانباً تكاد أن تكون منسحقة، فسأل السائق بصوت الذي تغمره الأحزان فلا يكثرث للمزيد من الأسى:

-ماذا حل بهذه السيارة؟

فقال: حاول أن يختصر الطريق فاتخذ الطرق الجانبية التي تموت فيها المصابيح؛ فاصطدمت السيارة بينما كانت تعود إلى الطريق السريع مرة أخرى فلم ينج منهم أحد، فنزلت هذه الكلمات على سمعه مثل مطرقة تهوي على الزجاج فأحس بأنه لا يعرف هويته و بأن لا شيء حوله إلا هواءٍ باهت يحتك بخده و السيارة تسرع.

